

● المبحث الثاني: الإرهاصات والمهاد النظري المنهج الاجتماعي:

يمكننا القول بأن المنهاج النقدي الأدبية حديثة النشأة بمراعاة الوجه الذي هي عليه الآن، قائمة على دراسة أعمال وإبداعات فنية وأدبية، لكن هذه المناهج لم تكن محض صدفة بل تبلورت على مدى عصور وبفكر متفاوت ومختلف باختلاف وجهات النظر والدراسات.

فالسوسيولوجيا أو علم الاجتماع بصفته علم مستقل كما هو قائم اليوم، تشكل بعد عدة محاولات ودراسات وأبحاث عميقة وكثيرة من قبل مفكرين وفلاسفة كبار تناولوه من جوانبه المتشعبة حتى قوبل في طابع صحيح قابل لدراسة الإبداعات المختلفة.

وكان للمنهج السوسيولوجي أو علم الاجتماع مهاد ومرجعية ضاربة في أعماق التاريخ إلى ما قبل الميلاد، والتوضيح الإرهاصات الأولى لهذا العلم كان لا بد من الوقوف على أسماء خلدتها أعمالها وأبحاثها في المجال، إذ نذكر منها الكتابات القديمة التي انتهجت البحث الاجتماعي والتي قدّمها المؤرخ الفيلسوف اليوناني "هيرودوت Héródote" والتي حملت في طياتها دراسة النظام الاجتماعي الذي كان سائدا في مصر زمن الفراعنة، إذ يربط الحقائق الاجتماعية لدى الشعوب القديمة بالفلسفة الاجتماعية التي لا تكاد تنقطع عن المعتقدات الدينية بحيث أن "الصفة الدينية بالذات، هي التي ميزت المجتمعات الشرقية عن سواها، حيث يقوم النظام الاجتماعي فيها على مبادئ دينية اعتبرت امتداد مباشر لعالم أسمى، يتأله فيه الحاكم".¹

لنتقدم في الزمن إلى مرحلة ظهور الفرق الصوفية الذين اهتموا بالبحث في المسائل الاجتماعية وقد استوحت بحوثهم قضايا تتعلق بالملاحظة والنقد والمقارنة إذ دافعوا عن حقوق الأفراد وحرّياتهم والمساواة ومقارعة العبودية.

ثم بلور أفلاطون أفكار وآراء بالغة الأهمية في كتابه "الجمهورية" حيث نسق فيه الفلسفة الاجتماعية تنسيقا بديعا محكما بحيث ظهر: "وكأنه جماع قواعد نظمت ووجهت بأسلوب يقود بيسر إلى قبول نتائج تتعلق ببعض قواعد السلوك الاجتماعي".²

¹ قصبي الحسين: سيسيولوجيا الأدب، دراسة الأدب، دراسة الواقعة الأدبية على ضوء علم الاجتماع، دار البحار، مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، د ط، 2009، ص 41.

² جمهورية أفلاطون : نقل حنا خباز، ص 106.

أما الفيلسوف أرسطو الذي ترك كتابين شديدي الاتصال بعلم الاجتماع الأول منهما "كتاب السياسة" وهو عبارة عن مقارنة أو مقابلة بين دساتير اليونان والدساتير المعمول بها في قرطاجة آنذاك.

أما كتابه الثاني "علم الاجتماع" فكان غني بأفكار شددت المفكرين والفلاسفة فيما بعد فهو يقول: "الإنسان حيوان سياسي" و"ذلك أنه غير قادر ولا قابل للانفصال عن الحياة الاجتماعية لأن الإنسان لا يمكن أن يُعرّف بأنه واحد منفرد، كما أن توحده لا يفيد شيئاً، ولا في تطور الأفكار والقوى العقلية التي هي غايته القصوى"¹. إذ يرى من خلاله أن الأسرة هي التجمع الوسيط الأمثل وهو الذي شبه الهيئة الاجتماعية بالكائن المفرد الحي الخاضع لتطورات الولادة والنمو والفناء، كما أضاف موضحاً شرطي التبدل والتغير مقدماً ذلك للباحثين الاجتماعيين أن هذين السابقين من شروط حياة المجتمع.

إن شروط الفلاسفة اليونان الأوائل بارزة للعيان في تاريخ ظهور مدرسة علم الاجتماع في العصور التي تتالت فيما بعد وخصوصاً في العصر الحديث.

فقد اعتبر أفلاطون أن الفرد "جزءاً لا ينفصل من المدينة جسماً وروحاً فهو مرتبط معها لا ينفك عنها، وأن المدينة وحدها خلّاقة الحق وولادة الأخلاق، كما أن التصعد الاجتماعي لا يتم إلا عبر انخراط الأفراد في تسلسل طبقي ووظائف تحددها السلطة لهم دون غيرها."²

أما أرسطو فهو يرى أن المجتمعات كائنات حية "لا تتحرك ضمن قواعد، وأن تباين الأوساط واختلاف تركيبها هو نتاج التنوع والتعدد، وأن السيسولوجيا أو علم الاجتماع ليس هو إلا علم الملاحظة قبل كل شيء آخر."³

¹ قصي الحسين: سيسولوجية الأدب، دراسة الواقعية الأدبية على ضوء علم الاجتماع، دار البحار، مكتبة الهلال، بيروت، لبنان ص 43.

² المرجع نفسه، ص 43.

³ المرجع نفسه، ص 44.

لنقف عند عام 354 م وهو تاريخ ميلاد القديس أوغستين Saint Augustin (354-430 م) لنجد أنفسنا توقفنا عند مؤلف هام يدخل في صلب علم الاجتماع والبحث الاجتماعي كان قد ألفه أوغستين وسماه "مدينة الله" بدافع واقعة روما الفيزيقوط* حلل من خلاله جميع الحضارات القديمة من وجهة نظر اجتماعية بحتة خصوصا لجهة المفاهيم الحقوقية والاجتماعية التي انطوى عليها الكتاب مثل: الحقوق الطبيعية وشرعية السلطة، وحرية الإنسان الطبيعية، وأسس التسلط... كما اعترف بوجود السلطة ضروري لسيادة العدالة.

في زمن أشد حلكة وظلاما من تاريخ العرب الإسلامي وبعد غياب أوغستين بألف عام تقريبا سطع نجم العرب المغربي ابن خلدون (1332-1406 م) فقد أبصر الرجل النور في زمن كان فيه القابض على العلم كالقابض على الجمر.

تأثر ابن خلدون للأوضاع السياسية التي سادت آنذاك من اضمحلال في الدولة الإسلامية في إسبانيا وظهور الدويلات في شمال إفريقيا وموجة التاتار في الشرق هذا ما كان سبب في اهتمامه بكتابة التاريخ إذ يعرفه فيقول: "إن هدف التاريخ الحقيقي، إفهامنا حال البشر الاجتماعية وتعريفنا بالأحداث التي ترتبط بها ارتباطا طبيعيا، ومعرفة آليات الهمجية البدائية، ولطف العادات، وروح الأسرة والقبلية، وسبب استعلاء بعض الشعوب على بعض وخلق الإمبراطوريات والأسر الحاكمة، وتميز الطبقات واهتمام بعض الناس بأعمالهم اهتماما عظيمًا، وصب جهودهم على الصناعات المربحة والمهن المجدية والعلوم والفنون... وبالتالي كل التغيرات التي يطبعها، تبدل الأشياء على المجتمع ويعطيها صفات خاصة."¹ "المقدمة": كتاب أعد عملا عظيما وممتازا في أبحاث علم الاجتماع المفسرة كما أجمع كثير من الباحثين والنقاد، وأن صاحبه ابن خلدون كان قد أرسى أصول هذا العلم في المغرب العربي ووضع أسسه، بحيث لازالت معالمه واضحة على صعيد البناء الاجتماعي لجميع الدارسين والباحثين المعاصرين، الذين أفادوا منه وعملوا على استكمال مناهجه وطرقه.

فيرى ابن خلدون من خلال مقدمته التي استنفذت دراسات وملاحظات لكل فكرة منطقية نظرية أو تطبيقية عملية كانت تستوقفه بعض الحوادث الاجتماعية الدورية التي تصيب المجتمع أنها خارجة في إرادة الإنسانية، كما يرى أن "الحياة

¹ ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1972، ص 220.

الاجتماعية حادثة طبيعية، وشروط هذه الحياة تنبثق-على الأغلب- من الوسط الجغرافي ومن الإقليم وهي أعظم تأثراً وأكثر ثباتاً من الحوادث السياسية العرضية¹.

ولمتابعة إرهاصات المنهج الاجتماعي لابد من إرساء الرحال عند عصر التنوير الذي عرفته أوروبا وعصر الثوار التي واجهت الإقطاعية التي كانت تسيطر على المدن والعواصم الأوربية، بحيث كانت تلك المدن عصر ذاك المكان الممتاز لارتكاز الموضوعات الاجتماعية التي كانت تنمو فيها وتتفاعل معها.

خلال القرن السادس عشر ارتسم تياران في تشكيل سيكولوجيا موضوعية الأول كان الاختباري والثاني طوباوي. إن السيكولوجيا الاجتماعية عند ماكيافيلي الذي مثل الاتجاه الاختباري تلخص في قوله : "إن ميل الناس نحو الشر أقوى من ميلهم نحو الخير"² ، حيث أعطى فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع السياسي وجود مستقل.

ثم إن سيكولوجية ديكارت [1650-1596] Decarte الاجتماعية وآراءه في الاجتماع هي أمرين اثنين أن التقدم الاجتماعي يرتبط بفن الطباعة أي أن العقل الذي يتحقق به التقدم متعلق بمزاج الأعضاء الجسدية أي بالسيكولوجيا ، وأن الأخلاق لها موقع من العلم بحيث تتوازي معه وتغدو تاجاً له.

على أن سبينوزا (1677-1632) تعرض للفلسفة الاجتماعية خاصة التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالجمتمع وحياة الأفراد فيه بحيث يغزو بضرورة تعادل متبادل بين الفرد والجمتمع و "أن الاستقلال الفردي، ووحدة الدولة عضويًا، يقفان متقابلين وجها لوجه، الواحد ضد الآخر، فالفرد المجتمعي يمكن أن يتعاون مع سائر الأفراد ليشكلوا باجتماع وجدانياتهم المشتركة ، فرداً جديداً أكثر سعة من الفرد الأول فكلما ازداد عددهم ازداد عدد المجتمع كبراً وضخامة واتساعاً، متجهاً نحو اللانهاية"³.

فمن سبينوزا إلى كانط وجان جاك روسو و فيكو الذي كان إرهاصاً لأوغست كونت كما أورد غاستون بوتول في كتابه (تاريخ السوسيولوجيا) حتى مونتسكيو ، فكل هذه الأسماء وبأبحاثها ودراساتها القائمة تحت لواء الدراسات الاجتماعية ظلت تدور كإرهاصات تبشر بولادة علم الاجتماع الحديث القائم على مناهج العلوم المجردة.

¹ ابن خلدون، المرجع السابق: ص 222 .

* واقعة روما والفيزيقوت، وقوع مدينة روما في قبضة الفيزيقوت أيام ملكهم آلاريك Alaric فشمت الوثنيون وأودعوا بأن تخلي الرومان عن آلهتهم القديمة واعتناقهم النصرانية مما سبب لهم النكبة وخراب مدينتهم الجميلة روما.

² دور كهانم: قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة محمد القاسم، مكتبة النهضة مصر، 1961، ص 161.

³ قصبي الحسين: سيكولوجيا الأدب: دراسة الواقعة الأدبية في ضوء علم الاجتماع، ص 49.